

(٧)

المقدمة

مباحث في القرآن

﴿القرآن﴾ في اللغة العربية معناه القراءة . وفي اصطلاح الشرع اسم لما بين دفّتي الصحف من كلام الله المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم والفرق بين القرآن والحديث أن القرآن كلام الله ووحيه الى نبيه صلى الله عليه وسلم المبلّغ الى الأمة بطريق التواتر . ومن ثم يخرج جاحده عن الملة . وأما الحديث فكلام النبي صلى الله عليه وسلم المبلّغ الى الأمة بالطرق المختلفة : منها القوي ومنها الضعيف . ولا يخرج جاحده عن الملة ولو كان متواتراً

كيفية ترتيب آيات القرآن وسوره

كانت آيات القرآن تنزل على النبي صلى الله عليه وسلم نجوماً متفرقة بحسب الوقائع وعند سnoch المناسبات والبواعث . فكان صلى الله عليه وسلم يلقنها الصحابة آية آية : وكلما تألفت سورة من تلك الآيات تميّزت باسمها وبسملتها . وكلما أنزلت آية جديدة أمرهم بضمها الى أخواتها ، وأرشدهم الى مكانها من السور . وهكذا كانت تتألف سور القرآن ، وتتنظم آياته ، حتى تمّ وكمل في نحو عشرين سنة

مفظ القرآن وكتابه

لم تتوفّر أمة على حفظ كتابها السماوي كما توفر المسلمون على حفظ كتابهم : فكانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم يحفظونه في الصدور ، كما يحفظونه في السطور . وكان كتابه في السطور فضلاء الصحابة منهم أمير المؤمنين سيدنا علي

وزيد بن ثابت وعامر بن فبيرة وغيرهم . ولم تكن القراطيس معروفة في عهدهم : فكانوا يكتبونه في الجلود ، وجريد النخل ، وصفيح الحجارة ، وعريض العظام وأما حفظه في الصدور فكثيرون أيضا : منهم عثمان وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وأهل الصفة

تعليم القرآن وتلقيه

كان قراء الصحابة حين الاستخفاء بالاسلام يترددون سرا على البيت الذي يسلم أهله فيعلمونهم آيات الوحي مدارس . ثم لما هاجر المسلمون الى المدينة ، وانتشر الاسلام في القبائل ، جعل القراء ينسلون اليهم ، فيعلمونهم القرآن . فاذا تعلمه بعضهم كفوه أن يعلم سائرهم . ثم يشخصون الى قبيلة أخرى فيعلمون أهلها . وهكذا كان شأن القراء بعد وفاته صلى الله عليه وسلم وانتشار الاسلام . وكان عمر رضي الله عنه يرسل الى القبائل قارئاً فيستعرضهم قبيلة قبيلة ، ثم يعاقب كل من لم يحفظ شيئاً من القرآن . وكان أبو الدرداء إذا صلى الصبح في جامع بني أمية بدمشق اجتمع الناس للقراءة عليه : فكان يصفهم عشرة عشرة ، ويجعل على كل عشرة عريفاً ، ويقف هو في المحراب يرؤمهم يمنة ويسرة . فاذا غلط أحد المتعلمين رجع الى عريفة ، فاذا غلط عريفة رجع الى أبي الدرداء فصحيح له غلظه . وقد أحصى أبو الدرداء يوماً تلامذته هؤلاء فبلغوا أكثر من ألف وستائة

الجمع الاول للقرآن

مات صلى الله عليه وسلم والقرآن محفوظ في صدور الرجال ، أو مكتوب في الجلود والصفائح . فلما تفرق الصحابة في البلاد للكسب والجهاد خيف على القرآن أن يضيع : فقد قتل من قراء الصحابة في حرب اليمامة وحدها نحو

سبعائة قارئ . فاهتم المسلمون للأمر ، وراجع عمرُ أبا بكر بلزوم جمعه . فتوقف أولاً ثم شرح الله صدره له فجمع تلك الرقوق والصفاح المتفرقة عند الصحابة وحفظها في صوانٍ واحد . وبقيت عنده حتى توفاه الله فاستلمها عمر وبقيت عنده حتى توفى أيضاً فحفظها ابنته السيدة حفصة

المجمع الثاني للمفراة

بهذا الشكل المحفوظ بين أيدينا اليوم

لما تولى عثمان الخلافة وانفسحت أطراف البلاد الإسلامية وتفرق المسلمون في جنبات الأرض بلغ عثمان أن قُرأ القرآن في الأمصار يختلفون في قراءة بعض كلماته ، وكان يتعصب لكل واحد منهم فريق . وأول من أنذر عثمان بذلك حذيفة بن اليمان بعد عودته من أرمينية . فخاف عثمان أن يتفرق المسلمون من جرأ ذلك شيعاً في الدين ، فطالب المصحف المحفوظة لدى حفصة . وجمع كبار الصحابة وجعلوا يستعرضونها آية آية ، ويتثبتون من لفظها ، وكيفية النطق بها ، ومكانها من أخواتها وموضعها من سورتها . حتى تمَّ لهم ما أرادوا ، وكتبوا من هذا المصحف أربع نسخ أرسلها عثمان إلى مكة والكوفة والبصرة والشام . وكان ذلك سنة (٣٠ هـ)

العناية بالمفراة في العصر الأول

وأخذ المسلمون منذ ذلك العهد بنسخون مصاحفهم عن تلك المصاحف الأربعة . ويتنافسون في النسخ المضبوطة . وقد كتب عبد العزيز بن مروان - أمير مصر - مصحفاً بالغ في ضبطه وأعلن أن من وجد فيه خطأ كان له فرسٌ وثلاثون ديناراً . فوجد فيه أحد القراء كلمة (نجعة) مكان (نعجة) فقال الجائزة

أما استظهار السلف للقرآن وحرصهم على استماع تلاوته فحدث عنه ولا حرج : قال الامام الشافعي « رأيت سفيان بن عيينة قائماً على باب كتاب . فقلت له : ما تصنع ههنا ؟ قال : أحبُّ أن أسمع كلام ربي من فم هذا الغلام »

الاعتناء في القراءات منذ الصدر الاول

كان للعرب قبل الاسلام لغات متعددة أي لهجات تختلف باختلاف قبائلهم ومواطنهم . وكانت لغة قريش سيّدة لغاتهم . فلما أنزل القرآن أنزل بهذه اللغة لاسيما أنها لغته صلى الله عليه وسلم . غير أن تكليف قبائل العرب أن يقرأوا قرآنًا بغير لغاتهم أمرٌ من الصعوبة بمكان . كما إذا كلفنا المصري مثلاً أن يتكلم بلهجة الشامي وهو لم يعيش في بلاد الشام . ومن ثم أنزل الله القرآن على نبيه بلغته القرشية ، ثم بلغات القبائل العربية الاكثر شيوعاً في الجزيرة لذلك العهد - وكانت سبعة - فكان صلى الله عليه وسلم والصحابة المختلفو القبائل يقرأون القرآن من حيث يسهل عليهم ، وباللغة التي تخفف على السنتهم . وفي هذا من اللطف والتيسير الالهي ما فيه ، وبه فسّر بعضهم قوله صلى الله عليه وسلم « إن القرآن أنزل على سبعة أحرف : فاقرأوا ما تيسر منه »

الاعتناء في المصحف الذي صحه

على لغة قريش أو حرف قريش

لما غلبت قريش بعد استتباب الإسلام على سائر القبائل ، ودانت جزيرة العرب كلها بدينهم ، وانتشرت فيها لغتهم ، أصبحت هذه اللغة هي الغالبة ، وصارت لغة العلم والدين والسياسة ، وأخذ العرب ينسون لغاتهم الأصلية بالتدريج إلا قليلاً . فرأى عثمان أنه لم يعد ثمة حاجة الى قراءة القرآن بغير لغة قريش لاسيما ان القراءة باللغات المختلفة يفتح باب الجدال في القراءات ، فيتفرق المسلمون الى

جماعات ، كما كاد يقع بالفعل . فرأى عثمان بعد استشارة كبار الصحابة أنَّ سدَّ الذريعة ومراعاة مصلحة المسلمين تستدعيان الاختصار من لغات العرب على لغة قريش ، فأثبتها في المصحف الذي جمعه .

لماذا أنزل القرآن ؟

أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ليكون نوراً للبشر يهتدون به ، ويمشون على أثره ، في استكمال مصالحهم الدنيوية ، وسعادتهم الآخروية . وقد قام بوظيفته هذه بالفعل : فإن العرب وسائر الأمم التي آمنت بالقرآن ارتقت وهي تعمل به الى ذرى العلم والمجد والمدنية ، وبالعكس لما أهملته وقصرت في مراعاة تعاليمه

مراعاة القرآن

أو أقطابه التي يدور خطابه حولها ثلاثة هي جماع كل شئ : (١) تصحيح الديانات (٢) تقويم الأخلاق (٣) تقرير الأحكام . وقد ذكر في أثناء هذه المراسد أمثال وقصص وأخبار عن الأمم الماضية تساعد على فهم تلك الأمور الثلاثة ، وتورث النفس فضل اقتناع بها ، وحسن إصغاء إليها

آيات القرآن المتعلقة بالاعظام قليلة جداً بالنسبة الى غيرها

إنما كان ذلك كذلك لأن هذه الأحكام تختلف باختلاف الزمان والمكان . ومدار العمل فيها على مراعاة المصلحة العامة ، وما يكون أدنى الى استصلاح حالة المسلمين . وترقية شؤون اجتماعهم ، وما ذكر من الأحكام القليلة في القرآن إنما ذكر ليكون نموذجاً تبنى عليه أصول ثابتة ، وقواعد محكمة . يستنبط منها الأئمة والمجتهدون لكل زمان حكماً يناسبه ، ولكل طارئ فتوى تطابقه

اعجاز القرآن

معنى إعجاز القرآن أن البشر عاجزون عن الاتيان بمثله . وقد تحقق هذا فعلا : فإن القرآن تحدّى البشر منذ يوم نزوله ، فكانوا يتكلفون معارضته ، ويحاولون منازلته فيعجزون . وهذا دليل على أن القرآن ليس ممّا اعتيد صدور مثله عن البشر . وما أحسن ما شهد له به عدوه الوليد بن المغيرة أحد سادات المشركين مذ قال : « والله لقد سمعتُ آثفاً من محمدٍ كلاماً : ماهو من كلام الانس ، ولا من كلام الجن . إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة . وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق . وإنه يعلو ولا يُعلى »

محكم القرآن ومتشابه

محكمه آياته التي لا يشتبه المراد بها على سامعها ، لوضوح معناها . أما متشابهه فأياته التي يشتبه المراد بها على السامع : فيقف وقفة المتردد المتسائل . ثم ينقطع رجاؤه في فهم المعنى ، فيفوض أمره الى الله . اللهم الاّ أفراداً وصلوا الى درجة الرسوخ في أسرار الشريعة ، فيوفقهم الله الى معرفة معنى المتشابه . ومثال المتشابه قوله تعالى : « الرحمنُ على العرش استوى » فإن حقيقة الاستواء غير مرادة قطعاً ، فله إذا معنى مجهول . قد يهتدى اليه ذو الفكر النير ، والقلب العقول

تفسير القرآن وتأويله

التفسير أن يغمض معنى الآية على بعض السامعين حتى إذا شَرَحْتَ له ألفاظها لغةً ونحواً وبلاغةً فهمه فهماً يطمئن اليه قلبه . أما التأويل فهو أن يكون للآية عدة معانٍ محتملة : فهما ذكرت للسامع معنىً ثم معنىً وقف وقفة المتردد

في اختيار أقربها الى نفسه . ومن ثمَّ كان التأويل أكثر ما يستعمل في جانب المتشابهات ، والتفسير في جانب المحكمات

فئة المؤول والمتشابه وكثر نزما في القرآن

الآيات المؤولة والمتشابهة كانت قليلة جداً في عهد النبوة وفي زمن السلف وقت أن كانت السلائق صحيحة ، والألسن فصيحة . فلم يكونوا يحتاجون إلا أن يقرأوا فيفهموا . اللهم إلا آيات معدودة هي التي سماها الوحي متشابهات . ثم كلما كان يقدّم العهد ، وتفسد ملكة اللغة العربية بما يمازجها من البطانة الأعجمية كانت الآيات المتشابهة والمؤولة تكثر في القرآن وتزاحم على سامعيه . فمعظم هذه الآيات التي نعدّها اليوم من المتشابهة المحتاج الى تأويل ليس هو منه في شيء . وإنما ملكات السامعين ضعفت عن فهم معناه ، واستشفاف مغزاه . فالذنب إذن على أولئك المستشككين في الآيات لاعليها ، والتقصير إنما ينبغي أن يُنسب اليهم لا اليها :
(والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف للنجم في الصغر)

النسخ والمنسوخ في القرآن

الآيات المنسوخة في القرآن هي أيضاً قليلة . بل ذهب بعض حذاق المفسرين الى إنكار وجودها فيه بالمرّة . وأشهرهم في ذلك المفسر الكبير أبو مسلم الأصفهاني . وغلاً بعضهم فكاد يجعل معظم آياته منسوخاً . والمنسوخات آيات تضمنت أحكاماً عمليّة خوطب بها المكلفون لأول نزولها خطاباً موقّتيّاً غير مؤبد . ومن هذا القبيل الآيات التي حُضِّ بها المخاطبون على الصبر وتحمل الأذى من العدو عند فقد العدة ، والعجز عن الدفاع . فانها منسوخة بالآيات التي تحضّهم على المقاومة ، وحماية الحوزة بعد القوة ، وتوفير العتاد . والنسخ في مثل هذا ضروري

الوقوع بل هو أمرٌ طبيعي لا معنى لإنكاره . ولا يلزم منه البداء على الله (أي الانتباه بعد الذهول) كما يقول منكرو النسخ : لأنه تعالى لما أمرنا بالخطاب الأول كان عالماً أن فيه الخير والصالح لنا إلى وقت كذا . وإذا كان يكون الخير والصالح في غير ما أمرنا به فيخاطبنا بغيره الأ نفع والأصلح لنا . فالنسخ يقع في مثل هذا من الأوامر والنواهي المتعلقة بالأحكام المدنية . والتبدل والتغير إنما هو بالنسبة إلينا ، وإلى علمنا الحادث ، لا إلى علم الله القديم . أما غير ذلك من أمر العقائد ، والإخبار عن شؤون الغيب والآخرة والأمم الماضية ، فلا يمكن أن يقع فيه نسخ إذ يلزم منه الجهل أو الكذب في جانب الألوهة وهو محال

علوم القرآن

هي كل ما يتكفل ببيان شأن من شؤونه : من تفسير آياته وتأويلها ، وبيان مقاصدها وأسباب نزولها ، وناسخها ومنسوخها ، وتناسبها مع ما قبلها وما بعدها ، وأساليب الخطاب بها ، وأنواع القراءات فيها ، وكيفية رسم كلماتها ، وغير ذلك . وأشهر المؤلفات في علوم القرآن وأغزرها مادة كتاب الإتيقان للإمام السيوطي

كتابة التفسير على القرآن

الأصل الذي يرجع إليه المفسر لآيات القرآن شيئان : (الأول) ما ورد من الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة في تفسيرها ،

(الثاني) قواعد اللغة العربية وأساليب التخاطب المعهودة عند أهل اللسان . ولما كان القرآن مُنزلاً بلغة العرب المخاطبين به حين نزوله وعلى مناحي كلامهم وأساليب خطابهم كانوا كلهم أو جُلهم يفهمونه ، ويعلمون معاني ألفاظه

مفردة أو مركبة . وإذا غاب عنهم شيء من ذلك رجعوا في فهمه الى النبي صلى الله عليه وسلم . فلم يكونوا في حاجة الى كتابة تعليق أو تفسير على الآيات المكتوبة والمحفوظة لديهم . بل كانوا منهيين عن ذلك خشية أن يندس من كلمات التفسير شيء في تضاعيف الآيات فيُظن أنه منها . وهذا هو السبب أيضا في نهى النبي لهم عن أن يكتبوا أحاديثه لئلا تحفظ وتتداول مع آيات القرآن فتشتبه به على طول الزمان . ثم بعد وفاته صلى الله عليه وسلم بقي التابعون يتأثمون من تعليق تفسير على القرآن ويعمدونه أمراً عظيماً ، حتى قال سعيد بن جبير رضي الله عنه - وقد سأله رجل أن يكتب له تفسيراً - «لأن يسقط شقي أحب إليّ من ذلك» وهكذا اتقضى القرن الأول والمسلمون ليس لديهم كتاب يدرسونه سوى القرآن كما كان شأنهم في عهد النبوة . وكانوا يتداولون بينهم تفسير آياته تداولاً شفوياً بالرواية والتلقين ، من دون تعليق ولا تدوين . وظلوا كذلك حتى استبحر العمران الإسلامي وتعددت أمصاره ، وتفرق علماءؤه في البلاد ، فلم يعد يمكن التلقي عنهم بسهولة . فاضطر المسلمون اذ ذاك الى كتابة التفسير على القرآن ، كما اضطروا في الوقت نفسه الى تدوين الحديث كما سيأتي في بابه

أول من دونه التفسير، وطريقة السلف فيه

أول من دونه التفسير وعلقه في الصحف مجاهد المتوفى سنة (١٠٤) هـ واشتهر بعد مجاهد في التفسير الواقدي المتوفى سنة (٢٠٢) هـ ثم بعده الامام ابن جرير الطبري المتوفى سنة (٢١٠) هـ وتفسيره طبع حديثاً في ثلاثين جزءاً ضمن عشرة مجلدات ، وهو من أمتع التفاسير وأجزلها فائدة . والمفسر وإن كان يعتمد في تفسير القرآن على شيئين كما ذكرنا آنفاً إلا ان مفسري السلف أكثر ما كانوا يعتمدون في تفاسيرهم على الأول أعني ما ورد عن النبي صلى الله عليه

وسلم والصحابة من الآثار في تفسير الآيات أما الاستناد على قواعد اللغة وأساليب
بلاغتها فكانوا يتأبونها خشية أن يكون للرأي البشري دخل في تفسير الوحي
الالهي . وكانوا أحياناً يحتاجون إلى معرفة أخبار الأمم الماضية ، والوقوف على
ما يقوله علماء أهل الكتاب في بعض المسائل لعلاقة ذلك بتفسير كثير من
الآيات التي أنزلت مجملة ، ولم يصح عن النبي ولا عن الصحابة شيء في بيانها .
فكانوا إذ ذاك يرجعون إلى من أسلم من أهل الكتاب ومعظم هؤلاء من سكان
البادية الذين يتداولون أخبار الأمم الحالية ، والأديان القديمة بالرواية والنقل .
ولم يكونوا اعتادوا التحقيق والتمحيص والمقارنة بين الروايات واستنتاج الصحيح
منها . وإنما صدقهم وسلامة صدورهم رضى الله عنهم كانت تحملهم على رواية
كل ما سمعوه . فكان مفسرو الصدر الأول يقبلون ذلك منهم ، ويروونه
عنهم ، ويودعونهم تفاسيرهم . وكانت الثقة متبادلة بين الجميع . والصدق والصلاح
ومخافة الله مستولية على القلوب . فلم يكونوا يتعمدون من القول كذبا وبطلانا ،
ولا يرتكبون في النقل زوراً وبهتاناً . من أجل ذلك كله كانت التفاسير المنسوبة
إلى علماء الصدر الأول متضمنة للغث والسمين ، مشتملة على ما ترفضه البدهة
أحياناً من الأساطير وهي ما يسميه نقاد المفسرين « الأسرائيليات » ويريدون
بها كل ما لم يصح عنه صلى الله عليه وسلم من أخبار الأمم الماضية ، ولا يلتحم
مع العقل ولا فلسفة التاريخ ولا نواميس العمران البشري .

هالة النفسير في القرون الوسطى

ثم لما دُونَ الحديث بالأسانيد الصحيحة عنه عليه الصلاة والسلام واستبحر
العمران في الإسلام . ونقل أهله إلى لغتهم علوم الحكمة والمنطق والفلسفة ،
وألفت كتب البلاغة العربية ، وتقررت قواعدهما ، كما تقررت قواعد علم

الأصول والمصطلح وآداب البحث ، وصار العلماء يرجعون في فهم الحقائق الكونية الى التحيص والتحقيق ، والمقايضة والاستنتاج - لما حصل كل ذلك أخذ تفسير القرآن شكلاً متيناً في أسلوبه ، صحيحاً في وضعه وترتيبه . فلم يعد يُقبلُ فيه إلا ما ثبت في السنة الصحيحة ، أو أيده قواعد اللغة العربية وأصول التخاطب بها عند أهل اللسان . وأول من نهج هذا المنهج في التفسير الامام أبو محمد بن عطية المغربي المتوفى سنة (٥٤٦ هـ) : فانه لخص تفاسير المتقدمين ، وتحرى ما هو أقرب الى الصحة ، ووضع تفسيره الذي تداوله أهل المغرب والأندلس ، وهو المسمى بالمحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز . وتبعه في طريقته هذه في بلاد المشرق الامام أبو عبد الله القرطبي المتوفى سنة (٦٧١ هـ) فانه وضع تفسيراً نحا فيه هذا النحو وسماه (جامع أحكام القرآن) . ومن مفسري هذه الطبقة الزمخشري صاحب الكشف المتوفى سنة (٥٣٨ هـ) والفخر الرازي المتوفى سنة (٦٠٦ هـ) والبيضاوي المتوفى سنة (٦٨٥ هـ) وتفسيرهم مطبوعة متداولة . أمّا أبو مسلم محمد بن بحر المعتزلي الاصفهاني المتوفى سنة (٣٢٢ هـ) فان تفسيره المسمى (جامع التأويل لمحكم التنزيل) لم يُطبع بعد وهو أربعة عشر مجلداً ونسخه الخطية نادرة قليلة الوجود . فاذا عثر عليه وطبع كان خير ما يهدى الى المكتبة الاسلامية اليوم ، وذلك لنفاسته وجودة تحقيقه ، وحسن طريقته ، كما يظهر من النموذجات التي ينقلها عنه المفسرون لا سيما الامام الرازي . وقد تتبع بعض علماء الهند ما ذكره الرازي من أقواله فجَمَعها في رسالة على حديثها ونشرها بالطبع وسمّاها (الملتقط)

هالة التفسير في القرون المتأخرة

لا يصح أن نسميها حالة خاصة إذ أن رجالها إنما يلخصون ما قاله غيرهم

و يتوسعون فيها قليلاً ، مع شيء من التحقيق والمناقشة . وأشهر من فعل ذلك العلامة شهاب الدين محمود الألوسي في تفسيره الكبير المسمى (روح المعاني) وهو من رجال القرن الماضي . ثم العلامة صدّيق حسن خان ملك الهند في تفسيره المسمى (فتح البيان) وهو يُعد من المعاصرين . وقد انتبه أخيراً طائفة من أهل الفضل الى لزوم وضع تفاسير تناسب ترقّيات العصور المتأخرة ، وتلتحم مع أصول مدينتها ، وعقول ناشئتها . فتجد هذه الطبقة من كتاب الله هادياً يهديها في طريق حياتها ، وسُلماً ترتقي به الى تحسين حالتها . وأشهر هؤلاء الفضلاء المفسرين الاستاذ الامام المرحوم الشيخ محمد عبده ، والسيد رشيد رضا ، والشيخ عبد العزيز شاويش ، وفريد بك وجدي ، والمرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي في تفسيره (محاسن التأويل) وهو في اثني عشر مجلداً ولم يطبع بعد . ووضع كاتب هذه السطور تفسيراً على جزء تبارك سلك فيه طريقة استاذه الشيخ محمد عبده في تفسير جزء (عم) مع شيء من التوسع في بعض المباحث الاجتماعية او اللغوية وقد تم ولم يطبع

